

التراث ودوره في ترسيخ أسس الهوية الوطنية وفي تقوية اللحمة المجتمعية
Heritage and its role in consolidating the foundations of national identity and
strengthening community cohesion

د. هليز أحمد *

المركز الجامعي نور البشير البيض (الجزائر)، dehlizahmed70@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/10

تاريخ القبول: 2025/11/14

تاريخ الاستلام: 2025/07/30

ملخص:

يحظى تراث أي أمة من الأمم بأهمية كبيرة؛ كونه يدخل في منظومة إرثها المادي والمعنوي التاريخي؛ إذ يعدّ الحاضنة الأساسية والركيزة الصلبة التي تتوكل عليها الهوية القومية أو الوطنية، وهو بذلك يعتبر ذاكرة الوطن وذخيرته من آثار ومعالم وعادات وتقاليد وطقوس وحرف وأزياء وأكلات شعبية، كلّها تمثل بصمة موحدة لأفراد اشتركوا جيلا بعد جيل في تلك الممارسات والمعتقدات والقيم التي شكّلت مظاهر وأبنية ساهمت في تواصلهم وترابطهم وإحساسهم باللحمة المجتمعية. يعمل التراث على تحديد معالم الشخصية الوطنية لأيّ أمة ضمن النطاق المحلي، ويعكس صورتها على الصعيد الخارجي، وهو ما سعت إلى توريثه الأنظمة الحاكمة عبر العصور للأجيال اللاحقة، من خلال تبني إستراتيجية هادفة إلى تقوية صلات الترابط بين الأجداد والأبناء والأحفاد، لأجل تعزيز أسس الهوية الوطنية وترسيخ قواعدها، وبغية ضمان تماسك نسيجها المجتمعي وتعميق مكوناته والغاية من ذلك هي الحفاظ على استمرارية كيان الدولة وتنمية روح الشعور بالانتماء المكاني والخصوصية الثقافية، حماية من التهديدات التي قد تتسبب في التعمية الهوية وتفككها. وهذا ما سنستغل عليه في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: التراث؛ الهوية الوطنية؛ الخصوصية الثقافية؛ الآثار؛ التاريخ.

Abstract:

The heritage of any nation is of great importance, as it is part of its historical material and moral legacy. It is considered the basic incubator and solid foundation upon which the national or patriotic identity rests. It is thus considered the nation's memory and its

treasure of antiquities, landmarks, customs, traditions, rituals, crafts, fashions, and popular foods. All of them represent a unified imprint of individuals who, generation after generation, shared these practices, beliefs, and values, which formed the manifestations and structures that contributed to their communication, cohesion, and sense of community cohesion .

Heritage defines the national character of any nation within the local context and reflects its image on the external level. This is what ruling regimes have sought to pass on to subsequent generations throughout the ages, by adopting a strategy aimed at strengthening the bonds of connection between grandparents, children, and grandchildren, in order to strengthen the foundations of national identity and consolidate its foundations. In order to ensure the cohesion of its social fabric and deepen its components, the goal is to preserve the continuity of the state's entity and foster a sense of spatial belonging and cultural specificity, protecting it from threats that could lead to identity obfuscation and disintegration. This is what we will address in this article.

Keywords: Heritage; National Identity; Cultural Specificity; Antiquities; History.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

إنَّ المتصفَّح لتاريخ الأمم والشعوب، يستكشف وجود مكونات أساسية لا غنى عنها في تحديد مظاهرها وتشكيل كيائها، ومن بين أبرز المعالم التي تضفي سمة الاختلاف والتمايز والمغايرة بينها؛ التراث الذي يعدّ ذاكرة الشعوب وبطاقة هويتها، وعليه يتبادر لنا في الأذهان بعض علامات الاستفهام، منها كيف يمكن للتراث الشعبي أن يؤدي دورا فعالا في تعزيز الهوية الوطنية؟ وكيف له أن يرسخ التنمية الثقافية المجتمعية؟ وإلى أي مدى يمكن له أن يساهم في خلق اقتصاد مستدام؟ هذه التساؤلات سنبحث لها عن إجابات من خلال اتخاذ دولة الجزائر كعينة لما لها من بعد تاريخي عريق وتراث شعبي متنوع بتنوع أطراف شعبيها؛ من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها.

بحكم الموقع الاستراتيجي الذي تحتله الجزائر، إطلالتها على قارة أوروبا من جهة الشمال وكونها بوابة لإفريقيا من الجنوب، ونافذة على العالم العربي من الشرق، فقد

أكسبها تراثا ثقافيا ثرا جراء انفتاحها على حضارة الآخر -عبر الزمان- إما سلميا أو استعماريًا، والنتيجة كانت تلقفها لمؤثرات ثقافية جمّة، إذ ورثت من مشارب متعدّدة واغترفت من ثقافات مختلفة، وهو ما ساهم في إعطائها هوية ذاتية فرضت حتمية الاجتهاد في المحافظة على التراث الثقافي الشعبي، الذي ظل مطروحا بوصفه مسألة مصير لاستمرارية كيان، وقد حاولنا -في هذه الورقات البحثية- تسليط الضوء على واقع ومأمول الموروث الثقافي في الجزائر، وسعينا إلى مناقشة الرهانات والتحديات التي تواجهه، كما بحثنا عن الآليات التي انتهجتها الدولة الجزائرية في سبيل حمايته وصونه باعتباره همزة وصل بين الأجيال المتعاقبة، وصمام أمان الوحدة الشعبية.

01 - مفهوم الموروث الثقافي:

بالنظر إلى صعوبة ضبط مكوّنات الثقافة وعسر تحديد عناصرها، وعليه فمن غير اليسير الوصول إلى مفهوم جامع ومانع لمصطلح الموروث الثقافي، لأنّ ما خلده الإنسان من أفكار ذهنية وآثار مادية تبقى شاهدة على مدار السنين، تطوّر ورقيه وانكساره وضعفه، إذ يمكننا الإشارة بالقول إنّ الموروث الثقافي هو ما خلفه الأسلاف من إنتاج فكري ونشاط اجتماعي، أو بتعبير آخر هو "اللباس المتغيّر الذي كانت تظهر به الديّانات والميثولوجيات والثقافات والمدنّيات كلّما انتقلت من صورة إلى غيرها، وتغيّرت من عقيدة إلى أخرى وهو مجرى الفنّون، من عمارة ونحت وتصوير وموسيقى وألحان وشعر وأدب" (عويس، 1999، ص.12)؛ بمعنى كلّ ما وصل إلينا من منجزات فكرية أو مادية من الماضي، مكتوبا كان أو شفويا، رسميا أو شعبيا، لغويا أو غير لغوي.

نجد هذا الموروث باق ومحفور ومرتسب في ذاكرتنا يعيش بداخلنا ومعنا، "إنّ التراث الذي وصل إلينا ما يزال يمتدّ فينا، وما نزال نحيا بواسطته شئنا أم أبينا، وعَيْنًا ذلك أم لم نعه، يحضر بأشكال متعدّدة في ذهنيّتنا ومخيّلتنا، ويتجلى بصور مختلفة في تصرفاتنا وتعبيرنا وطرائق تفكيرنا" (يقتين، 1992، ص.125)، بأنساقه وأنماطه التي استطاعت التمرّكز بوعينا والاستحواذ على حيّز من أفكارنا، يحضر ويغيب والقطيعة معه مستحيلة مهما حاولنا، حتى وإن نسيناه نحن أو هجرناه فقد تذكّرنا به المتاحف أو نراه ماثلا أمام أعيننا في كلّ مكان وزمان وفي ممارسات غيرنا وتعاييرهم المتداولة في معاشهم اليومي.

لا مانع من مشاطرة نظرة الأنثروبولوجيين الذين اعتبروا تكلّسات ورواسب ومخلّفات العناصر الثقافية التي تركها السلف إلى الخلف هي بمثابة قضية حضور وفعل؛ بمعنى "استمرار الماضي في الحاضر استمرار الجوهر في تجلياته" (العظمة، 1987، ص.11)، بالممارسة الآلية الواعية وغير الواعية من البشر، والاكتساب الغريزي لبعض العناصر التي كانت سائدة في مجتمعات في وقت مضى وفات، فرغم ما يطرأ من تغيير من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال أكثر تقدّمًا وحادثة، إلّا أنّ تلك العناصر والأشكال الثقافية المادية والمعنوية والاجتماعية باقية في التداول بين الأفراد ومستمرة في تواجدها البيئي المجتمعي الحاضن لها؛ إنّها الديمومة لجينات الهوية والتواصل الحضاري بين الماضي والحاضر والاستشراف لمستقبل يأبى بتر أواصر الانتماء والقطيعة بين الأجيال، وما التّاريخ سوى عامل ثانوي خارجي يدوّن ويسجّل كينونة هذا الجوهر.

ويعرّف التّراث أيضًا بأنّه: "كلّ ما تبقى من الماضي ماثلا في الحاضر الذي انتقل إليه عفويا أو إراديا، ويستمر مقبولا من طرف من آل إليهم ومؤثرا فيهم، إلى درجة تجعلهم يعملون على تمريره للأجيال اللاحقة شفويا وكتابيا وسلوكيا" (شنيقي، الجزائر، 2013، ص.169)، فيصبح مجالا تميّز فيه هويتهم الجماعية ووعاء معنويا تتشكّل فيه شخصيتهم الذاتيّة، وخزاناً لمرجعياتهم الفكرية، وقد بيّنت بعض الدّراسات والبحوث أنّ هناك وجهتي نظر حول تقبّل التّراث من عدمه، طائفة مؤيدة لتبنيه وإحيائه تعمل جاهدة على توريثه، وأخرى ترى فيه حاجزا وعقبة أمام كلّ فكر تطوّري تقدّمي، تلغي الثبات وتنفيه، تؤمن بالديناميكية والحركية والتجديد، وترى في التّراث أنّه مجرد ذكرى من الماضي اندثر مع انقراض الجيل الذي أنتجه بما يناسب زمانه ويخدم أغراضه.

وفي نظر "جبور عبد النّور" الذي قال بشأنه "هو ما تراكم خلال أزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون وعلوم في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتّاريخي، يوثق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التّراث" (عبد النّور، 1989، ص.63)، وكأنّه يحاول تشبيه التّراث بالكائن الحي المتحرّك الذي ينتقل من محطة إلى أخرى بهويته، وبالكيان الذي يطرح ذاته ويحاول فرض وجوده ماديا ومعنويا وسلوكيا وقوليا بصيرورة دائمة، بأبعاده وعالمه

الشائك المتشابه وببقاياهم ومساراته، جَلَّها تشكُّل موضوع جوهري لا يمكن إغفاله أو تجاهله أو حتى تجاوزه.

وإذا ما خصصنا الحديث عن الموروث الثقافي الجزائري، فلا يختلف اثنان عن غنى عناصره وتدلُّيلنا على صحة ما ذهبنا إليه، تلك الآثار التاريخية التي لا تزال معالمها قائمة إلى غاية يومنا هذا ومنتشرة عبر كافة ربوع التراب الجزائري؛ بمدينة تيبازة وبجاية وتلمسان ومنطقة سيفار بالطاسيلي والهقار وغيرها من الأماكن الكثيرة، التي شهدت مروراً حضارياً جراً تعاقب حقب زمنية، لكل منها سيماتها وخصوصياتها. وبهذا الطرح فإنَّ التراث تراكم مادي ومعنوي، والتاريخ تسلسل كرونولوجي بوصفه ديمومة وحركة تسحب معها مخلفات الماضي وأطواره، ومن جهة ثالثة نلفي أنَّ الثقافة تدخل كعامل في معادلة الواقع والمجتمع، كونها في نظر جمهور العارفين بساحتها لا تنفصل عن التاريخ والتراث. وعليه يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أنَّ التراث هو أكثر أوجه الثقافة استيعاباً وتخليداً من طرف التاريخ؛ أي "لا وجود لتراث ثقافي في المطلق خارج شروط تكوُّنه في التاريخ" (جلال، 2024، ص.107)؛ لأنَّ الحدث لا يكتمل إلّا في وجود الزمان والمكان وهما خاصيتان أساسيتان يستند عليهما التاريخ بوصفه ذاكرة الشعوب ومركز كينونتها واستمرار نسلها وسلالتها.

فالأمة التي لا تراث لها؛ هي أمّة مبتورة النّسب والجذور مع ماضيها الذي هو أساس حاضرها واستشراف مستقبلها، والحفاظ على التراث أشبه بهوية نسل شريف إذا ما اعتبرناه كائناً ينبض بالحياة كما قال عنه جبور عبد النّور، والاهتمام به والعناية ببقاياها التاريخية والحرص على تناقله والاستفادة منه يعدّ عاملاً من العوامل التي قد تساعد وتسهم في ديمومته وبقائه رغم متغيّرات الحاضر وتفاعلاته، والتراث حسب ما هو متعارف عليه ينقسم إلى تراث ثقافي مادي وتراث ثقافي لا مادي، بحيث كلّ واحد منهما يتناول ناحية من نمط عيش وتفكير جيل ما، معارفه التي اكتسبها ومهاراته وخبراته التي مارسها، فانتقلت عبره إلى جيل آخر يعتبره امتداداً له ووريثاً لمكتسباته المادية والمعنوية التي توصّل إليها.

إذا ساقنا الحديث عن الموروث الثقافي المادي الذي يشمل كثيرا من "الأشياء المادية والخبرات المتوارثة المتعلقة بشؤون العمل، وتنقسم الثقافة المادية إلى عدة فروع... مثل الحرف والمهن، والعمارة، والأدوات المنزلية وأدوات الطعام، والأدوات الزراعية، والفلاحة والأسلحة" (البكر، البحث الميداني في التراث الشعبي (البكر، 2009، ص. 247)؛ بمعنى كل ما يمارسه وينتجه ويصنعه الإنسان في حياته العادية العامة، التي بالإمكان ملاحظتها وقياسها ولمسها وهذه الأعمال تصير موروثا تقليديا في زمن وعصر غير الذي وجدت فيه، غير أنها تحظى بجانب من العناية والاهتمام والتمسك لدى الأجيال اللاحقة؛ لأنها صارت في وعيهم أحد معالم ضمن مخزون ذاكرتهم وثقافتهم، وأحد ركائز ودعائم هويتهم.

2- الهوية والذاكرة:

من غير الممكن الخوض في الكلام عن التراث دون أن نخرج على مصطلحي الهوية والذاكرة، ولعلّ السبب في ذلك راجع إلى ارتباطهما المفهومي الذي لا ينفصم عن موضوع التراث الذي يتموقع في حقل المعارف الاجتماعية والإنسانية، وهذه الثلاثية -التراث والذاكرة والهوية- بمثابة مطية للوعي المعاصر فإذا "قبلنا أنّ التراث بعد من أبعاد الذاكرة فإنّ الذاكرة يؤكّد بعضهم، هي التي تدعم الهوية على المستوى الفردي والجمعي على حد السواء" (كاندو، 2009، ص. 11)؛ بمعنى أنّ الذاكرة تدعم بناء الهوية هي في الأساس متجذّرة وعالقة في سيرورة وحركية ذاكرة يعاد إنتاجها إما بطريقة واعية أو غير واعية فرديا أو جماعيا، فتتيح للأنّا أو ال(نحن) الشعور بالانتماء واكتساب الهوية.

وفي مفهوم الهوية الثقافية تمتدّ الروافد التاريخية وتتشابك حدود الأصالة والمعاصرة في بيئة مجتمعية تناقل موروثها المادي والمعنوي بفعل التأثير والتأثر، فإذا كانت الثقافة هي: "كلّ ما أنتجه الإنسان من تطويلا فكري وعملي، فإنّ الهوية الثقافية تشترط في هذا الإنتاج أن يكون أصيلا متفردا يعبر عن ملامح فارقة ولا يتماهى مع أية ثقافة أخرى أو على الأقل يمتلك خصوصية ما تفرقه عن الثقافات الأخرى" (الضبع، 2016، ص. 17)، من حيث السمات الفارقة والملامح الظاهرة للعيان التي تجعلها مائزة عن غيرها إما تجاوزا أو تداخلا أو تشعبا.

تثير قضية الهوية والتراث جدلا فكريا هاما في الساحة العربية المعاصرة، كون هذه الاثنية المتلازمة تمثل الخصوصية والبنية التحتية التي تتوكل عليها أسس وقواعد أي نسيج اجتماعي وطني عربي أو قومي عربي إسلامي، وباعتبار التراث مرجعية تاريخية وذاكرة جماعية وترسيخ لثقافة إنسانية؛ فهو من أكثر المحددات لملامح الهوية وتأصيلها وحبل الوريد الذي يضح دماء الشعور بالانتماء المكاني والفخر والاعتزاز بالعقد الاجتماعي الذي نخترله في لفظة الوطن، فبقايا التراث تفعل فعلتها حينما "تؤثر في ردود فعلنا وفي أفكارنا وتوجه سلوكنا العاطفي، فعلى الصعيد العاطفي نبقى على مناعتنا أعصياء على التطوع، فبين ما نعتقد أننا نؤمن به، وبين ما نشعر به غالبا ما يوجد نوع من الانقسام" (شانغان، 1993، ص.19)، إن الذات تتأرجع بين سؤال الهوية وأوهامها وبين التمسك بالأصالة ورغبة ركوب تيار المعاصرة بين التقليد وضرورة التجديد؛ إنه التيه في فلسفة الوجود أو الاغتراب والاضمحلال في هوية الغير الذي يسعى إلى مركزة ذاته وتهميش الآخر.

03 - جدلية الأنا والآخر صراع هوية وثقافة:

الذي يبدو لنا في العالم الجلي الظاهر، أن هناك علاقة تأثير وتأثر أو هيمنة وتهميش أو قوة وضعف كلّ هذه العلاقات قد تساهم بقدر من فرض الأفهام والأفكار التي تجد لنفسها أنساقا ثقافية تحاول أن تتسرّب عبرها وتأخذ عن طريقها مكانتها إما بالتنميط أو بالاستجابة اللا شعورية، وهنا تحاول الأنا تحديد مختلف أبعادها ومعالمها بفضل وجود الآخر الذي يدفعها إلى تشكيل معناها بكلّ منتجاتها معنوية كانت أو مادية بما فيها الثقافة؛ وعلى هذا الأساس يمكن أن تتحدّد الفوارق والتمايزات بين الأنا والآخر في نطاق ما يسمى بالهوية؛ التي من خلالها تسعى الذات وبكلّ حرص منها على تأكيد هويتها، كما تعمل على مواجهة الآخر الذي في منظوره يحاول اختزالها وتهميشها وتشويه صورتها، من هذا المنطلق "بدأ سؤال الهوية يورق الإنسان العربي نتيجة احتكاكه بالآخر، الذي سبقه حضاريا، وبدأ يهدّد وجوده، حين زحف إلى الشرق مستعمرا، إذ إنّ المرء لا يدرك أهمية هويته، إلّا في لحظة مأزومة" (حمود، 2013، ص.13)؛ أي أنّ العربي في مواجهة المختلف الغربي الذي يدفعه إلى وجوب الحفاظ على مكوّناته مهما

كانت الظروف والتحديات، ومنه نستشف أنه كلما كان هناك اختلافا ومغايرة إلا وازداد الإنسان تمسكا وتشبثا بمقومات هويته ومكوناتها وخصوصيتها.

على ضوء ما سلف، يتضح جليا وشيعة وتقاطعات التراث بالهوية، من خلال ارتباط مظاهر الطقوس والعادات والتقاليد والاحتفالات بالحياة اليومية لشرائح المجتمع، فهي ذات اتصال وثيق بتصورهم لعالمهم الخاص وفهمهم لتاريخ أجدادهم، حيث تعتبر تلك الأنشطة الاعتيادية ممارسات حياتهم وواقعهم، إنهم يؤدونها إما بطريقة عفوية أو مكتسبة بالوراثة أو غير واعية أحيانا، وكأنها قدسية بالتحلي والتجلي، دون أن يبحثوا لها عن مبرر، حيث تلك السلوكيات يطعمها حسهم الوجداني الذي يكسبهم قيمة انفعالية وانحيازية لروح الجماعة، فتتأكد معها هوية الانتماء والولاء للماضي الذي تشدهم إليه مشاعر الانجذاب والارتباط بالذكريات التي خلفها التراث وخلدها التاريخ في سجلاتهم ومدوناتهم وذاكرتهم.

يفرض تعاضد كل من التراث والهوية والثقافة بالمفهوم الإنساني، بعدا من أبعاد تعزيز وتنمية فكرة المواطنة، التي نجدها قد احتلت حيزا واسعا في المسارات الفلسفية والتشريعية والسياسية، فهي -المواطنة- تشكل بنى وآليات وقيم وممارسات تسعى من خلالها الأنظمة الاجتماعية إلى تكريس مبدأ الاندماج الوطني وتحفيز وعي الفرد للإيمان بدور الهوية ومبادئها في تحقيق سمة التشاركية الجماعية في بناء كيان اجتماعي يخضع لنظم وقوانين تضبط العلاقات القائمة بين ساكنة أي إقليم يطلق عليه اسم الوطن، والمساهمة في بنائه والتمسك به تعلقا ودفاعا عنه في أصعب الظروف ندعوه مواطنة.

04 - المواطنة ودورها في تنمية اللّحمة الاجتماعية:

ينظر إلى المواطنة على أنها اتفاق معنوي بين أفراد المجتمع، يدعو إلى ضرورة الالتزام بالواجبات مقابل الحصول على حقوق داخل الرقعة الجغرافية التي تجمعهم، أين يفترض فيها تحقيق العدالة والمساواة بين المواطنين باختلاف مستوياتهم ووضعياتهم المعيشية، وتحدد متانة هذه العلاقة بدرجة الخدمة والحب والإخلاص والوفاء للوطن، والمواطنة في أبسط تعريفات لها هي: "قيم وسلوك أي تربية وأداب وأخلاق وتكوين وذوق حضاري وتراث مرتبط بقيم وثوابت المجتمع وفلسفته في الحياة" (المغاوري الملاح،

2017، ص.22)؛ فهي التزامات الفرد الأخلاقية والاجتماعية اتجاه إخوانه المواطنين وتعلّقه وحبّه وولائه لوطنه.

إنّ فكرة المواطنة تنبي في وعي النّشء مكانته ودوره وواجبه إزاء الآخرين واتجاه وطنه وما يربطه داخل البيئة التي تحتضنه من مبادئ وتصرفات وقيّم قد تكون معاول بناء أو هدم لهيكل الدولة ونظامها وبالمفهوم الإيجابي حول علاقة الإنسان بوطنه "يمكن رصدها من منظور مادي ومعنوي، فقد يرتبط المرء بوطنه وأمتّه، ماديا واجتماعيا، فتنشأ علاقة مشتركة أساسها المصلحة المتبادلة بين الفرد والجماعة، ويشعر الأفراد بحاجتهم إلى التعاون والتضامن في دفع المضار وجلب المنافع" (حمادي علاوي، 2019، ص.7). للوطن، ومتى ضعفت روح الاعتقاد بالمنشأ والتّاريخ والتّراث والثقافة المشتركة؛ بمعنى انقطاع حبال الماضي عن الحاضر، نتيجته فقدان الوطن لمعناه والوطنية لمهيتها. يطرح سؤال الهوية وموضوع المواطنة أهمية بالغة وتحديات كبيرة في وقتنا الراهن، نظرا لمقدار التهديدات التي تواجهها الكثير من الدول، نتيجة لما فرضته العولمة من تحولات حياتية وتغيّرات إقليمية وعالمية، وبسبب انفتاح الأنا على الآخر حضاريا؛ وهي العوامل المهيمنة والضاغطة التي استطاعت أن تتوغل في أفهام الأفراد وتشوّش عليهم انتظامهم العام في موطنهم الذي يعدّ مسكنهم ومحلّهم الذي يربطهم به التعلّق بالتراب ومصادر العيش؛ في هذا المقام تحضرنا أبيات لابن الرومي يقول فيها عن حب الوطن والانتماء إليه (السيد حسين، 2008، ص.3):

ولي وطنٌ آليت ألا أبيعهُ وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا

فقد ألفتُ النفسُ حتّى كأنه لها جسدٌ إن بانَ غودرتُ هالكا

إنّ تعلّق الفرد بوطنه والتصاقه بالمكان حالة نفسية عاطفية، تحرّكها ذكريات الماضي والتّراث والمعتقد والانتماء والنّسب، إنّه شعور بالغيرة والتملّك لا سيما في حالات الاستعمار ومحالات المساس بسيادته ووحدته الترابية، مما يدفع إلى التآزر والتكاتف ورص الصفوف للذود والدفاع عنه بالنّفس والنّفيس، لمجابهة الغزاة حتى ولو تطلّب الأمر الاستشهاد مقابل عدم التفريط في شبر من داخل حدوده الجغرافية التي حددها القوانين وأقرتها المواثيق الدولية وهكذا أضحت حميمية الفرد بينه وبين تراثه عاملا مساعدا في بناء هوية المواطن فكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا، وداعما

لفكرة التعايش والتكيف المتكامل لإرساء دعائم المواطنة والتربية عليها "قد أصبحت ضرورة حضارية لازمة في بناء المجتمعات الديمقراطية، وفي المحافظة على التقاليد الديمقراطية في المجتمعات الحرة" (النمر، 2018، ص.13).

تعيش المجتمعات العربية راهنا مصيريا غير مسبوق، وذلك راجع إلى التحولات والتبدلات في مختلف الأصعدة والسياقات؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، هذه التغيرات أفرزت نظاما عالميا جديدا يؤمن بالمادية ومركزية القوة، وأحدثت حالة من المواجهة بين أنصار الحداثة وأنصار التراث، أنصار التراث الذين يسعون من خلاله إلى استرجاع ماضي أجدادهم بكلّ تجلياته الثقافية وتقاليده الإثنية، مع رفضهم لكلّ جديد مختلف عن ذلك الماضي الذي قد تندمج فيه شعوبهم في عالم لا يعترف إلا بالحرية والتحرر من قيود الأسلاف نظير الرقي والتقدم، وحجة قوى التراث أنّ القطيعة بين الأجيال هي نوع من الانتحار وفقدان للهوية الذاتية في حال ذوبانها بفعل منطق التداخل بين الثقافات والتلاقح بين الحضارات.

04 - التربية على المواطنة وترسيخها:

يولد الإنسان مواطنا فيجد نفسه مجبرا على مشاركة من حوله في شؤون شتى، وذلك بحكم الروابط الاجتماعية والتاريخية والثقافية وكلّ ما وصل عن طريق التراتبية التاريخية من إرث مادي أو غير مادي، حيث تساهم تلك الروابط العفوية أو القصصية، طوعا أو كرها في اكتمال الطبيعة الإنسانية التي تعدّ شرطا من شروط أمن واستقرار الحياة البشرية، و قد تواجه هذا السكون والهدوء المعيشي تحديات وتغيرات ومستجدات تفرضها مختلف الظروف والأزمات التي قد تدفع بالفرد إلى التفكير في "هدم الموروث والرغبة في إعادة بناء المجتمع من الصفر" (شنابر وباشوليه، 2018، ص.106)؛ يدفعنا هذا القول إلى التفكير في مبادئ الفلسفة الفردانية الداعية إلى الاستقلالية من قيود الماضي من خلال تدمير هياكله وأغلال مؤسساته الطاغية في المخيال الجمعي للناس.

يمكن القول إنّ التراث والهوية والمواطنة والتاريخ عناصر ذات ارتباط وطيد بكيونة الفرد الذاتية والجماعية في آن واحد، إنّها في نظرنا معالم توجيه وتأطير حياته وتعايشه وشعوره بالانتماء إلى جماعة "يتشارك أعضاؤها في تاريخ مشترك ووطنية

وروابط تضامنية، يمثل التاريخ الذاكرة الجماعية التي نسجتها أحداث ورموز وشخصيات وأساطير، والوطنية لا تتحدث عن الإطار القانوني لهذا الذي يجوز جواز السفر ولا تتناول الوطنية من حيث كونها إيديولوجية سياسية، بل تتحدث عن الشعور بالمشاركة في تراث وثقافة" (كورتينا، 2015، ص.50)، هذه التشكيلات التي تركز عليها وطنية الفرد وتعزّز انتماؤه الروحي والديني والاجتماعي والسياسي، هي ملمح اعتقادي وتواطؤ نظامي واعتراف ضمني بالتشاركية الثقافية الجماعية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ للثقافة الدور الكبير في نسج الروابط الاجتماعية والحفاظ على تماسكها، وهذا المصطلح يسع حمولة معرفية فضفاضة كون الثقافة تشير إلى الآداب والعلوم والفنون التي تعرفها الأمم والشعوب المتحضرة، كما أنّها تتصل بمجمل أساليب وطرائق حياة جماعة اتفاقا وتوافقا حول أمور تمّ تعلّمها أو نقلها، والاهتمام بموضوع الثقافة كموروث إنساني يضم عادات بني البشر وتقاليدهم، قصصهم وخرافاتهم، معتقداتهم وأنماط عيشهم، مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ومشربهم وفولكلورهم.

ولو توفقنا عند كلمة فولكلور لوجدنا هذا المصطلح أيضا في حدّ ذاته اسم لحقل يهتم بدراسة الأزمنة القديمة للجماعات، عاداتهم وممارساتهم، ملاحمهم وكفاحاتهم، انتصاراتهم وانكساراتهم، أفراحهم وأحزانهم أمثالهم وحكاياتهم، والفولكلور كجزء من التراث الذي يعدّ نواة الثقافة بحاضرها وماضيها، والشعوب قد تعود إلى "الماضي وإلى الإنسان العادي البسيط للتعرف على جذورها وأصولها من أجل تحديد هويتها القومية وزيادة وعيها القومي، وذلك كجزء من الإيديولوجية القومية الرامية إلى التحرّر القومي" (كناعنة، 2011، ص.114)، لإبراز الخصوصية الذاتية التي توحد الجماعة وتبرز جذورهم التي انحدروا منها، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق التمسك بالتراث الذي هو مرجعية المنبت والأصل والهوية والفصل.

يسوقنا الحديث عن علاقة الذات بالتراث إلى جدلية فلسفية، تطرح أمامنا إشكالية القارئ من المقروء والموضوعية مقابل التحيزية، حيث "اندماج الذات في التراث شيء واندماج الذات في التراث شيء آخر أن يحوي التراث شيء وأن نحتوي التراث شيء آخر... القطيعة التي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث بل القطيعة مع نوع من

العلاقة مع التّراث، القطيعة التي تحوّلنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث" (الجابري، ، 1993، ص.21)؛ بمعنى أن نكون أناسا تراثهم يعتبر أحد مقوماتهم يمثّل شخصيتهم الجماعية الأشمل والأعم، ونقصد بها هوية وشخصية الأمة صاحبة التّراث.

خاتمة:

إنّ مقولة التّراث هو ذاكرة الشعوب؛ هي فكرة مستوحاة من رحم الحياة الاجتماعية، وفقدان الإنسان لذاكرته يعدّ انفصالا عن تاريخه، فإهمال الأمم لتراثها المادي والمعنوي وتخليها عنه، بمثابة اجتثاث الهوية من جذورها، فلا مستقبل بلا حاضر ولا حاضر بدون ماض، كذلك الشأن بالنسبة لمتلازمة الهوية والتّراث وعلى هذا الأساس يمكن التوصل إلى النتائج التالية

التراث هو إنتاج الإنسان يعبر عن الإنسان وظروفه وأساليب عيشه وتفكيره ولذلك يعد من الأدوات التي تساعدنا على معرفة أشكال الحياة في الماضي والحاضر .

✓ التراث يعتبر بطاقة الهوية الوطنية والدينية والقومية واللغوية لأيّ أمة من الأمم.

✓ الاهتمام بالتّراث والمحافظة عليه، من قبيل العناية بالشخصية الجماعية وتأسيس دعائم الاعتزاز بالهوية والتأكيد على روح الانتماء الحضاري والارتباط بالمقومات التاريخية، حيث لا يكون ذلك إلّا عن طريق العناية بالآثار والترويج لها بواسطة السياحة وإدراجه من خلال إدراجه - التراث- ضمن المناهج التعليمية، بغية إبقاء جسور التواصل ممدودة بين السلف والخلف.

✓ يستوجب العمل على جمع التراث الجزائري المادي والغير مادي، وجعله بمثابة موسوعة انثروبولوجية يمكن أن يكون مجال بحث وساحة نشاط فكري وثقافي تتبناه مراكز البحث الأنثروبولوجي.

✓ إنّ التراث هو فهم الذات للآخر من خلال البعد الحضاري والانساني .

✓ التراث مقوم أساسي يمتلكه الأنا لمجابهة ثقافة الآخر الدخيلة التي من خلالها يسعى إلى طمس هويتها وإحلالها ضمن ثقافته العائمة (اكتساح ثقافة الأنا).

المصادر والمراجع:

- 1) تامر المغاوري الملاح، (2017)، المواطنة الرقمية تحديات وآمال، السحاب للنشر والتوزيع، الاسكندرية، مصر.
- 2) جبور عبد النور، (1989)، معجم الأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط.1.
- 3) جويل كاندو، (2009)، الذاكرة والهوية، تر: وجيه أسعد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية.
- 4) داريوش شانغان، (1993)، أوهام الهوية، تر: محمد علي مقلّد، دارالساق، بيروت، لبنان، ط.1.
- 5) دومينيك شنابر وكريستيان باشوليه، (2018)، ما المواطنة؟، تر: سونيا محمود نجا، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط.1.
- 6) سعيد يقطين، (1992)، الرواية والتراث السردى من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط.1.
- 7) سيد عويس، (1999)، الخلود في التراث الثقافي المصري، مكتبة الأسرة، مصر.
- 8) شريف كناعنة، (2011)، الثقافة والتراث والهوية، المؤسسة الفلسطينية لدراسات الديمقراطية، رام الله، فلسطين.
- 9) شوقي جلال، (2024)، التراث والتاريخ، مؤسسة هنداوي، يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة.
- 10) صفد عبد العزيز حمادي علاوي، (2019)، المواطنة ودورها في بناء الدولة المدنية الحديثة دراسة مقارنة، دار الكتب والدراسات العربية الإسكندرية، مصر.
- 11) عدنان السيد حسين، (2008)، المواطنة في الوطن العربي، منتدى الفكر العربي، بيروت، لبنان، الرباط، المغرب.
- 12) عديلة كورتينا، (2015)، مواطنون في العالم نحو نظرية للمواطنة، تر: علي المنوفي مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر.
- 13) عزيز العظمة، (1987)، التراث بين السلطان والتاريخ، دار قرطبة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط.1.
- 14) ماجدة حمود، (مارس 2013)، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 15) محمد البشير شنيقي، (2013)، علم الآثار تاريخه. مناهجه. مفرداته، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- 16) محمد عابد الجابري، (1993)، نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط.5.

- 17) محمد نور النمر، (2018)، المواطنة في المناهج الدراسية السورية، مركز حرمون للدراسات المعاصرة ودار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع، غازي عنتاب، تركيا، الدوحة، قطر، ط.1.
- 18) محمود الضبع، (2016)، الثقافة والهوية والتكنولوجيا، مكتبة الاسكندرية، مصر.
- 19) محمود مفلح البكر، (2009)، البحث الميداني في التراث الشعبي (عرض- مصطلحات- توثيق- مقترحات- آفاق)، منشورات وزارة الثقافة مديرية التراث الشعبي، دمشق، سورية.